استثمار المسجد في نشر اللغة العربية بوسط قارة إفريقيا

د.عبدالله إنبية المعلول

يرجع الفضل في انتشار الإسلام، وبناء المساجد في غرب القارة الإفريقية ووسطها وشرقها ، إلى الدعاة وقوافل التجار والرحالة المسلمين، الذين جابوا مجاهل إفريقيا من مكان إلى آخر(١). وكان بعض هؤلاء التجار يقدمون أنفسهم أحياناً لبلاط الملوك الوثنيين، فيستقبلونهم بالحفاوة والتكريم، بسبب خبراتهم الجيدة وأخلاقهم العالية، وعن طريق ذلك دخلوا في أوساط الحاشية، وعرفوا الكثير من أسرار الحكام، وكيفية إدارة ممالكهم، وعرفوا أن السلطة الدينية جميعا في يد الملك، والبعض من هؤلاء التجار عمل مستشاراً للملك لضمان حمايته، وأقاموا الأسواق التجارية لتسويق بضائعهم، وشيدوا المساجد لتأدية صلاتهم اليومية، وكان من نتيجة ذلك أن دخل الكثير من الأهالي في الإسلام(٢)، بسبب ما شاهدوه من حسن وأدب معاملة التجار المسلمين لهم، ولا سيَّما مظهرهم وملابسهم المحترمة، والمتفقة مع تقاليد الإسلام، وهم يؤدون صلاتهم في نظام وخشوع لله ربِّ العالمين(٣).

وقد ذكر الجغرافي أبو عبيد البكري(٤)، أنه في سنة ٤٥٥هـ، كانت توجد في غانا مدينة إسلامية، فيها اثنا عشر مسجداً، يلتقي المسلمون في أحدها في حشود ضخمة، ويجتمع الأئمة والمؤذِّنون من جميع أنحاء البلدة على صعيد واحد لدراسة أحوال المسلمين(٥).

هذا وقد كان للمساجد والزوايا التي بناها الدعاة المسلمون، في القرنين الثامن والتاسع عشر الميلادي، وسط القارة وغربها وشرقها، دور كبير في نشر الإسلام، ومن ثمَّ نشر اللغة العربية بين السكان، واستطاعت تلك الزوايا والمساجد الوقوف بحزم ضدَّ الحملات التنصيرية النشطة، التي كانت تجتاح إفريقيا، واستطاعت أن تحول بحيرة تشاد ونواحيها، إلى مركز إشعاعي لنشر الدعوة الإسلامية وعلوم العربية في وسط إفريقيا، كما تصدَّت تلك الزوايا والمساجد بقوة للاستعمار الغربي وحاربته ردحاً من الزمن(٦). وتتكون الزاوية من مدرسة لتعليم القرآن الكريم وعلومه، ومسجد للصلاة، ومضيفة خاصة لإقامة الغرباء(٧). وقد انتشرت الزوايا في الكثير من الدول الإفريقية الممتدة من شمال إفريقيا إلى أقصى بلاد السودان، حتى بلغ عددها في أوائل القرن العشرين، أكثر من مائة وعشرين زاوية(٨).

لقد أدرك أعداء اللغة العربية مدى المنزلة التي يتميز بها المسجد في تعليم الكبار والصغار، كتاب الله العزيز، ومبادئ علوم العربية، ومن ثمَّ مدى الخطورة التي يشكلها المسجد بالنسبة لهم، ذلك هو السر الذي جعل من المسجد الهدف الأول لأعداء المسلمين.

إنَّ ضعف دور المسجد هو ما يسعى إليه أعداء اللغة العربية، وهو انعكاس لضعف الأمة الإسلامية، ولن تكون هناك صحوة إسلامية، إلاَّ عندما يقوم المسجد بدوره الفعَّال، في نشر اللغة العربية والعلوم الإسلامية بلغة عربية فصحى.

ويناقش هذا البحث، الخطر المتزايد الذي يواجهه المسجد بمؤسساته العلمية وسط القارة الإفريقية، والكيفية المثلى للنهوض بهذا المرفق الهام، وكيفية الدفاع عنه، للحيلولة دون تكرار مآسي أخرى .فإذا نجحنا في ذلك آن للغة العربية أن تنتشر، وتعم قارة إفريقيا بكاملها .

بعض دول وسط إفريقيا التي يتعرض فيها المسجد للعدوان

دول وسط القارة هي : الكونغو، زائير، رواندا، بورندي، الجابون، الكاميرون، إفريقيا الوسطى، غينيا الإستوائية، أنجولا.

وحين رأى الاستعمار الأوربي تزايد أعداد المسلمين ، والتوسع في بناء المساجد في تلك الدول، حاول جاهداً عرقلة ذلك المد الإنساني، بتشجيع العصابات الوثنية والمسيحية المتعصبة، بالاعتداء على المسلمين بالتعذيب والقتل ومصادرة الأموال، على مسمع ومرأى من الأجهزة الحكومية لتلك الدول، حتى وصلت الهجمة مداها حين قام هؤلاء المتعصبون بالهجوم على الكثير من المساجد وتهديمها وسرقة محتواها.

وسأحاول في هذا البحث، كشف ما يتعرض له المسجد من عدوان ومصاعب في الدول الآتية وهي: جمهورية إفريقيا الوسطى، أنجولا، زائير.

جمهورية إفريقيا الوسطى

توجد جمهورية إفريقيا الوسطى في قلب القارة الإفريقية، تحدُّها جمهورية السودان من جهة الشرق، وتشاد من الشمال، وزائير والكونغو من الجنوب، والكاميرون من الغرب. ويبلغ عدد سكانها أربعة ملايين وثمانمائة ألف نسمة، نسبة المسلمين فيها ٢٪، ونسبة المسيحيين ٧٥٪ ما بين كاثوليك وبروستانت، وبقية ٥٪ وثنيين لا دين لهم . دخلها الإسلام في أواخر القرن السابع عشر، عن طريق الممالك الإسلامية، في تشاد والسودان وكذلك التجار المسلمين . وقد تمسك المسلمون في إفريقيا الوسطى بعاداتهم الإسلامية والعربية، ولم يتأثروا بثقافة الغرب التي تأثر بها بقية المواطنين الأصليين، الأمر الذي جعل المستعمر الفرنسي يزرع العداء في عقول المسيحيين، في محاولة منه لدفعهم للقضاء على رمز وحدة المسلمين .

وفي مطلع شهر نوفمبر ٢٠١٣م، بدأت الهجمة الشرسة ضد المسلمين في إفريقيا الوسطى، على أيدي العصابات النصرانية بمباركة الاستعمار الفرنسي، في مدينة (بوسقوا) وبعض القرى التابعة لها، فقتلت عدداً كبيراً من الأطفال والنساء والرجال وصل عددهم إلى أكثر من أربعين شخصاً. وازدادت وتيرة العنف في المدن الغربية للبلاد كمدينة (بوزم)، ومدينة (باوا)، ومدينة (بوسمبلي)، التي قُتل فيها وحدها ١٠٠ مدني مسلم حسب إحصاءات منظمة العفو الدولية، خمسة وعشرين منهم قتلوا داخل مسجد في صلاة الفجر وتم حرقهم. وبتاريخ ٥ ديسمبر ٢٠١٣م شنَّت المليشيات المذكورة هجوماً على العاصمة (بانغي)، قُتل على أثرها ما تجاوز الستين مسلماً.

واستمر هذا الوضع قرابة الشهرين، حتى وصل عدد المسلمين الذين قُتلوا في العاصمة وحدها، على يد المليشيات النصرانية إلي أكثر من ٧٠٠ قتيل، ما بين امرأة ورجل وطفل. وفي مدينة (بودا) التي تبعد عن العاصمة ١٢٠ كيلو متر، قُتل فيها ٧٥ مدنياً مسلماً في يوم واحد، حسب شهود عيان من منظمة الصليب الأحمر ومنظمة العفو الدولية .

أما مدينة (بويالي) التي تبعد عن العاصمة (بانغي) ٩٥ كيلو متر، قُتل فيها ٣٠ قروياً مسلماً من رعاة الأبقار وعائلاتهم، حسب ما نقلته السلطات المحلية للمدينة، التي أكدت قتل هؤلاء من قبل المليشيات المسلحة .

وفي مدينة (بوزم)، قُتل كذلك أكثر من عشرين مسلماً على يد المليشيات نفسها حسب مصادر الصليب الأحمر. وقد وصل عدد القتلى من المدنيين المسلمين الأبرياء، حسب إحصاءات منظمة الصليب الأحمر ومنظمة العفو الدولية، إلى قرابة ٢٠٠٠ قتيل منذ اندلاع العنف الذي استهدفهم من قبل الميلشيات النصرانية، التي أعلنت أكثر من مرة رغبتها في إبادة المسلمين في إفريقيا الوسطى، وإخراجهم منها بالقوة، وقد وصل الأمر أحياناً إلى حرق جثة القتيل المسلم في الشارع وجرِّها أمام العالم . أما أعداد اللاجئين فقد وصل إلى ٧٠ ألف لاجيء بدولة تشاد، و٣٥ ألف لاجيء بدولة الكاميرون .

وحتى يومنا هذا، مازال القتل والتهجير القسري يمارس ضد المسلمين في العاصمة وبعض المدن والقرى المجاورة .

وفي العاصمة (بانغي) وحدها، بلغ عدد المساجد التي قامت بهدمها الميلشيات النصرانية ٤٠ مسجداً، من أصل ٤٩ مسجداً موجودة بالعاصمة، أما البقية فمهددة بالهدم . وفي المدن الأخرى التي تم تهجير المسلمين منها بالقوة، والتي يصل عددها إلى ٢٠ مدينة كبيرة، تم هدم جميع المساجد فيها بالكامل ، وأُحرق بعضها، وقد وصل تعداد تلك المساجد إلى أكثر من ٨٠ مسجداً غير الزوايا . أما إحراق المصاحف وتدنيسها والاستهزاء بمقدسات المسلمين، فيحدث ذلك علانية وأمام الإعلام الدولي .